الثورة السوريّة وموقف الفلسطينيّين:

مفارقة الموقف بين المؤيّدين والمعارضين

مسلم محاميد*

مدخل:

أذكر ذلك اليوم الذي اتّصل بي فيه أحد أصدقائي، مهنّئًا بسقوط نظام حسني مبارك في مصر وتغلُّب "الروح الثوريّة" وبزوغ "إرهاصات الحرّيّة كأشعّة الشمس في يومٍ صافٍ". وكانت مفاجأتُه حين كان ردّي عليه فاترًا شيئًا ما. ولـمّا سأل عن سبب فتوري وعدم تحمُّسي لـ أجبته: أشدّ ما أخشاه أن ينتقل بنا هذا "الربيع العربيّ إلى ما هو أشدّ من خريف لا ربيعَ بعده".

إنّ هذا التغيير المفاجئ الذي داهم عالمنا العربيّ من ثورات، بدأت شرارتها من تونس، ثمّ سرعان ما انتشرت في معظم أرجاء الوطن، لم يكُن تغييرًا مخطَّطًا له، ولم يكن خلفه أجندات غربيّة ولا عقول استعماريّة. بل كان انتفاضةً شعبيّة وَقودُها عقودٌ طويلة من القهر والظلم والقمع، أدّت إلى ذلك الرفض وتلك الصرخة التي تمثّلت في تلك الهبّة الشعبيّة الممتدّة على أجزاء الوطن.

وما يُثْبت ذلك ويدلّ عليه هو أنّ مَن شاهد وسائل الإعلام الغربيّة والإسرائيليّة في تلك الفترة، كان في مقدوره أن يقرأ -بسهولة فائقة- تلك الحيرة وذلك التساؤل في عيون المحلّلين والخبراء، الذين وقفوا في البداية مكتوفي الأيدي لا يلوون على شيء، ولا يستطيع أيّ منهم أن يسهم بتحليل شافٍ لِما يحدث أو طرح رأي سديد بشأنه.

لكن العقليّة الأمريكيّة والغربيّة عمومًا لم ترضَ -على ما يبدو-أن تقعد جانبًا، بل عملت على النظريّة ذاتها والأساس ذاته اللذين تنتهجهما حديثًا حيال جميع الثورات. أقصد النظريّة التي يتبنّاها الغرب والتي مُفادُها أنْ لا حاجةَ للتدخّل فعليًّا، بل الأفضل هو ركوب الثورات وتوجيهها حسب الأَجِنْدات الغربيّة، والوصول إلى الهدف المرجوّ من خلالها، وجعْلها تخدم المصالح الغربيّة من حيث لا تدري وهي تحسب أنّها تُحْسن صُنعًا.

في هذه العجالة، لا مجال لاستعراض جميع الجوانب السياسيّة والعسكريّة التي رافقت هذه الثورات، والوقوف عليها من باب التحليل السياسيّ أو العسكريّ، ومن باب توضيح كيفيّة تغلغل الإرادة الغربيّة وتمكينها في هذه الثورات، بل سنكتفي في إبراز هذه الحقيقة -وهي أنّ هنالك أهدافًا غربيّة تَبِعَت هذه الثوراتِ-بغية محاولة الإجابة عن تساؤلنا في هذه المقالة. وهذا التساؤل هو:

كيف، ولماذا برز ذلك التناقض وتلك المفارقة في الموقف من الثورات في ما سُمّي الربيعَ العربيّ، وبخاصّة حيال الثورة السوريّة، وعلى نحوٍ أخصّ من قِبل الفلسطينيّين؟ ولماذا كانت هذه الخصوصيّة في النقاش اليوميّ والفضاء العامّ للثورة السوريّة؟

للإجابة عن مثل هذا التساؤل، لا بُدّ من إجمال رأينا في عدّة نقاط:

أوّلًا – الموقف من "الربيع العربيّ" بصورة عامّة:

نذكرُ أنّ جميع العرب التفّوا حول تأييد الثورات في البداية، وقالوا بوجوب إسقاط الأنظمة الغاشمة والقامعة لشعوبها. وكانت الفرحة عارمةً حين سقط زين العابدين بن علي وفرّ من تونس. ما زلنا نذكر ذلك الشيخ الذي رسختْ في قلوب الملايين جملته الشهيرة: "هَرِمْنا حتّى رأينا هذه اللحظة". وما زلنا نذكرُ الفرحة التي عمّتْ أوساطًا كثيرةً حين أعلن عمر سليمان عن تنحّي حسني مبارك عن الحكم. وما زلنا نذكر كيف جعل كثيرون الرئيس الليبيّ معمّر القذّافيّ أضحوكةً حين ردّدوا مقولته: "بيت بيت، زنجة زنجة" وكانت فرحتهم غامرة حين تمّ التخلّص من حكمه.

كلّ ذلك كانَ يُنقَلُ تباعًا عبْر شاشة قناة الجزيرة القَطَريّة، التي كانت المصدر الأوّل والأخير الموثوق به لدى معظم مَن تابعوا هذه الأحداث، والذين طالما سخروا من وسائل الإعلام التي كانت تروّج للأنظمة التي هبّت في وجهها الشعوب.

في ظلّ ما حدث في العالم العربيّ، كان الشعب العربيّ السوريّ قد تأثّر بما رأى مِن حوله، وكانت بوادر الثورة عام 2011 قد بدأت بالظهور، رغم أنّ النظام كان يروّج من خلال إعلامه أنّ ما حدث في بعض الدول العربيّة لن ينتقل إلى سوريا.

لكنْ وكامتداد طبيعيّ، بدأت الثورة السوريّة فعلًا. ومَن عايش تلك الأيّام وراقب الأحداث جيّدًا، لاحظ أنّ الثورة السوريّة بدأت بالهتاف والغناء وبسلميّة مُطلقة. وحتّى بعد أن قمع النظام المتظاهرين وقتَلهم، وبرز ضمن هذه الثورة مصطلح "التشبيح"، بعد كلّ ذلك وبالرغم منه، استمرّت سلميّة الثورة، والمطالبة السلميّة بأن يتنحّى الرئيس.

أمّا الموقف من هذه الثورة في سوريا، فقد كان غير واضح بسبب التعتيم الكبير الذي فُرض على الأحداث. ولعلّ الثورة في سوريا كانت أقلّ الثورات شفّافيّةً حتّى اليوم، مع محاولات جميع الأنظمة في البلاد التي حدثت فيها الثورات أن تعتّم على ما يحدث، ولا سيّما في كلّ ما يتعلّق بموقف الشعب من هذه الأنظمة، أو بممارساتها حيال شعوبها.

ثانيًا – عسكرة الثورة في سوريا ورائحة الأَجِنْدات الدخيلة:

بدأت الثورة في سوريا تحديدًا في الـ 18 من آذار عام 2011 م. ولا شكّ أنّ هذه الثورة، شأنُها في ذلك كشأن الثورات الأخرى، لم تكن سوى هبّة شعبيّة عفويّة لم يُخطَّط لها من قبلُ، ولم يقُدْها حزبٌ ولا طائفة ولا جهة غربيّة أو غيرُها. بل هي هبّة صرخت في وجه القمع والظلم الذي دام لعقود. وهذه الثورة -كما ذكرنا-هي أكثر الثورات سلميّةً في ما سُمّي "الربيع العربيّ".

لكنْ، وبعد عدد من الشهور السلميّة، بدأت عسكرة الثورة السوريّة. هذه العسكرة يمكن وصفها على محورين:

المحور الأوّل – العسكرة كردّة فعل طبيعيّة على ممارسات النظام: من الطبيعيّ أنّ كلّ ثورة يمكن أن تكون مصحوبة بالعنف المتمثّل بحمل السلاح واستعماله. وهذا هو مفهوم أيّ نشاط عسكريّ ضمن مصطلح: "الحرب"، بغضّ النظر عن حجم هذه الحرب أو تعريفها كحربٍ تقليديّة أو حرب عصابات أو ثورة أو غير ذلك. ومع هذا، فلقد تروّى السوريّون كثيرًا قبل أن يُشهروا سلاحَ دفاعهم في وجه النظام.

بعد عدد من الأشهر، بدأت عسكرة الثورة. وهذه العسكرة كانت **عسكرةً دفاعيّة** لا **عسكرة هجوميّة**، بخلاف ما حدث في كثير من الثورات العالميّة عبر التاريخ. وهذا يُرصد لصالح الثوّار السوريّين. لكن عنف النظام أجبر السوريّين على حمل السلاح، وهو ما ساعدت على حدوثه عوامل كثيرة. فالإمعانُ في قتل الثوّار وتعذيبهم من قِبل النظام جعل الأصوات التي تنادي بعسكرة الثورة تزداد وترتفع. وكذلك بعض المنشقّين عن الجيش والذين عادوا إلى صفوف الشعب استعملوا خبرتهم وثقافتهم العسكريّة وأسهموا في عسكرة الثورة.

المحور الثاني – تدخّل الجيوش الخارجيّة: هذا المحور يعيدنا إلى ما ذكرناه في المدخل، وهو أنّ الأَجِنْدات الغريبة لم تقف مكتوفة الأيدي، بل حاولت الركوب على هذه الثورات للوصول إلى أهدافها ومطامعها. وهذا المستوى من العَسكرة هو أعلى وأشدّ خطورة من

المستوى الذي ذكرناه في المحور الأوّل. فعسكرة الثورة، كردّة فعلٍ مضادّة لممارسات جيش النظام، تبقى ضمن الإطار الداخليّ والمحدود مقارنةً بالمستوى الذي يُتيح للقوى الخارجيّة أن تتدخّل في الشأن الداخليّ.

وفي الثورة السوريّة كان التدخّل الأجنبيّ على وجهين: الأوّل، هو الوجه الذي تدخّلت فيه الولايات المتّحدة الأمريكيّة ومَن والاها في الثورة، والثاني هو تدخّل روسيا ومَن والاها إلى جانب النظام. وهكذا، فقد فقدت سوريا بوصلتها نظامًا وثورةً، وأصبحت في يد الأقطاب المتناحرة والأطراف المتنازعة عليها وعلى مقدّراتها وموقعها الإستراتيجيّ ومكانتها الهامّة.

وعلى نحوٍ ما هو متّبَع وطبيعيّ، حين ينشب خلاف في داخل البيت يستدعي تدخّل الغرباء، فإنّ الغرباء -على وجه العموم- يحاولون الاستفادة من تدخّلهم؛ فبدلًا من أن يُصلحوا ذات البَيْن، يجعلون النزاع يتفاقم من أجل أن يحظَوْا بمقدّرات هذا البيت ويسيطروا عليه. ويحدث الأنكى من هذا حين تكون هذه الأطراف متصارعة متنازعة على المقدّرات وطامعة أصلًا بها. وهكذا فقد انتُهكت حقوق الأبرياء وانتُهك الوطن بين مَن استجلبه النظام ومَن جاء باسم مساندته للثورة.

ثالثًا – موقف الشعب الفلسطينيّ المتناقض من الثورة السوريّة: لم يكن موقف الشعب الفلسطينيّ واضحًا من الثورة السوريّة في البداية. فجميع الأطراف كانوا على شيء من الترقّب والتساؤل، ووسط التعتيم الكبير وقف الجميع حائرين. وحين أخذت الأمور تتفاقم وتتعقّد، بدأ رذاذ المعلومات يصل إلى هنا وهناك، حتّى أصبح هؤلاء الحائرون قادرين -من وجهات نظرهم-على الانحياز إلى هذا الطرف أو ذاك. وهذا الميلُ أو الانحياز حرّكه الكثير من العوامل الذاتيّة والحزبيّة والأيديولوجيّة التابعة لهم، لا بناء على الحدث الحقيقيّ الذي ما يزالون يفتقدون المعلومة الكافية والشافية عنه إلى اليوم.

إنّ جميع الثورات التي حدثت في العالم العربيّ، خلال ما سُمّي الربيع العربيّ، لم تكُن على ذلك التناقض والحيرة والاهتمام من قِبل أبناء الشعب الفلسطينيّ. فكما ذكرنا، كان معظمهم يقفون إلى جانب الثورات ضدّ الأنظمة، وقد أبدَوْا فرحهم الكبير حين سقطت هذه الأنظمة. أمّا في ما يتعلّق بالقضيّة السوريّة، فتجدهم يُبدون بها اهتمامًا، ربّما أكثر من السوريّين أنفسهم، سواء كان ميلهم إلى النظام أو ضدّه. وهنا يكمن التساؤل الكبير: لماذا يُبدي الفلسطينيّونَ ميلًا كبيرًا إلى طرف ما في سوريا، أكثرَ ممّا كان يهمّهم في البلاد العربيّة الأخرى؟

في الحقيقة، كثيرًا ما يُدفع هذا الميل إلى هذا الطرف أو ذاك بدوافع المائل لا بدوافع الحقيقة والموضوعيّة. وإنّنا ندلّل على ما نقول بأمرين: الأوّل هو أنّ هنالك شبه اتّفاق بين أصحاب فكر سياسيّ أو فئويّ أو حزبيّ أو طائفيّ معيّن حول موقفهم وميلهم إلى طرف دون آخر. وهذا الاتّفاق في الحقيقة غريبٌ جِدًّا. فالسؤال المطروح: أليس عجيبًا أن يتّحد أبناء حزبٍ ما أو حركةٍ ما دون استثناء تقريبًا حول ميلهم إلى طرف ما في القضيّة السوريّة، في الوقت الذي قد يختلفون فيه على مبادئ حزبهم أو أيديولوجيّتهم؟ أليس هنالك مَن يعارض مَيل الحزب أو الفئة ويتّخذ موقفًا آخر؟ أم إنّ ما يراه الحزب أو الفئة هو من باب الفرض الذي تُمنع مخالفته؟

والثاني هو أنّ هنالك توافقًا ما في الرأي وقبولًا لأصحاب الرأي المخالف وللخصوم إذا كانوا يميلون إلى الطرف ذاته؛ فقد تجد العلمانيّ متّفقًا مع المتديّن أو العكس إذا كان الطرفان مائلَيْن إلى الطرف نفسه.

فبصورة موضوعيّة، وللوهلة الأولى، يمكن تقسيم الموقف الفلسطينيّ من الثورة السوريّة إلى قسمين: قسم يؤيّد النظام ويرى فيه الحامي الوحيد والمحافِظ على ثوابت القضيّة العربيّة والواقف في وجه الولايات المتّحدة الأمريكيّة وإسرائيل، والمانع الذي يشاكس ويناور العدوان الخارجيّ عسكريًّا وسياسيًّا من أجل الحفاظ على بنْية الوطن. وفي المقابل، يرى هذا القسم أنّ الثوّار والمعارضين هم وكلاء لتمكين أَجِنْدات دخيلة، الهدف منها النيْل من الوطن وتغيير وجه المنطقة إلى ما يخدم المصالح الأجنبيّة. والذين يتبنّون هذا الموقف هم بعض العلمانيّين وبعض الشيوعيّين وغيرهم. أمّا القسم الثاني، فهو مَن يرَوْن عكس ما يراه القسم الأوّل. فبالنسبة لهؤلاء، النظام هو نظام قاتل فاشيّ ظالم، يقتل الناس الأبرياء في سبيل البقاء في السلطة. ومنهم مَن يذهب إلى أنّ هذا النظام يخدم الأَجِنْدة الروسيّة والأَجِنْدة الفارسيّة التي لا تقلّ طمعًا عن غيرها من الأَجِنْدات الدخيلة في المنطقة. وهؤلاء هم الإخوان المسلمون والإسلاميّون

الآخرون وغيرهم. وبين هؤلاء وهؤلاء، نجد كثيرين يقفون على محور التأييد إلى هذا الجانب أو إلى ذاك الجانب، كلٌّ منهم يجد موقعه على المحور حسب تطرّفه أو اعتداله في مَيْله إلى هذا الجانب أو ذاك.

إنّ الموقف الذي يتبنّاه الفلسطينيّون من القضيّة السوريّة خاضع -في كثير من ثقله-إلى مَيْلهم السياسيّ أو الفكريّ كما ذكرنا. لذا، ليس من المستغرَب أن تجد على صفحات التواصل الاجتماعيّ نقاشات حادّة تصل إلى حدّ تبادل السباب أو الإهانات لمجرّد الاختلاف في هذه القضيّة. وكذلك في المجالس اليوميّة كثيرًا ما كان العنف الكلاميّ والجسديّ سيّد الموقف في أيّ نقاش حول القضيّة السوريّة بين مؤيّدي الثورة ومؤيّدي النظام.

ولقد ذكرنا أنّ المصدر الإعلاميّ الأوّل والأخير للمعلومات حول ما سُمّي "الربيع العربيّ" كان قناة "الجزيرة" القَطَريّة. لكنّ اللافت أنّ هذه القناة أصبحت في مصافّ الأعداء عند مؤيّدي النظام السوريّ. ففي البداية، صفّق هؤلاء كثيرًا لقناة "الجزيرة" التي مدّتهم بالتغطيات المتلاحقة حول الثورات العربيّة، وكانت مصدرهم الأهمّ، والأكثر احترامًا، في حين لم يعيروا أيًّا من قنوات الأنظمة العربيّة اهتمامًا. أمّا خلال الثورة السوريّة، فقد انقلبت "الجزيرة" إلى عدوّ شرس، لأنّها استمرّت في تأييد الثورات العربيّة ضدّ الأنظمة، وأصبحت القنوات السوريّة، والقنوات المؤيّدة للنظام السوريّ -كقناة "المنار" التابعة لحزب الله، وقناة "الميادين"-هي المصادر الإعلاميّة الموثوقة.

واللافت أيضًا أنّ هنالك انفلاتًا واضحًا للضوابط لا يقتصر على مستوى النقاش أو السلوك في جدال المخالفين، بل يتعدّاه إلى مستوى أكثر خطورةً، وهو تبنّي أفكار قد تزعزع أركان الثوابت الوطنيّة والدينيّة. فكيف يمكن أن نفسّر- تأييد مؤيّدي النظام للتدخّل العسكريّ الروسيّ في سوريا واعتباره بطولة وإنسانيّةً ودفاعًا عن السوريّين وعن القضيّة العربيّة، متجاهلين أطماع روسيا في الوطن العربيّ، متعامين عن أَجِنْدتها الطامعة؟

وكيف يمكن تفسير تأييد بعض مؤيّدين الثورة للتدخّل الأجنبيّ الآخر، ولوجود أَجِنْدات مشبوهة في سوريا، واعتبار كلّ ذلك دعمًا للأبرياء السوريّين؟

الخلاصة:

يبدو أنّ الفلسطينيّين تبنَّوْا مواقفهم حيال القضيّة السوريّة من خلال إيمانهم أو معتقداتهم السياسيّة والفكريّة وبنَوْا حولها تأييدهم لطرف دون آخر. وهذا الأمر يبدو في حدّة النقاشات والعداء الواضح الذي سرعان ما يظهر من بداية أيّ نقاش بين شخصين يتبنّى كلّ منهما طرفًا دون آخر. بل ثمّة ما هو أكثر من ذلك؛ فقد تبلغ هذه النقاشات حدّ التخوين. فمؤيّدو النظام يتّهمون مؤيّدي الثورة بالخيانة والرجعيّة ودعم الأَجِنْدة الصهيوأمريكيّة في المنطقة، ومؤيّدو الثورة يتّهمون مؤيّدي النظام بالخيانة وتأييد الأَجِنْدة الروسيّة والفارسيّة في المنطقة.

وبين هؤلاء وأولئك، يمكن القول إنّ هذا التعصّب الفلسطينيّ في تأييد طرف دون آخر في القضيّة السوريّة هو أمر مستغرَب، ينبع من دوافع أيديولوجيّة وحزبيّة تُدار عاطفيًّا لا موضوعيًّا. كذلك تحوّلت هذه النقاشات إلى نقاشات شخصيّة يشعر كلّ طرف فيها بالمهانة حين يخالفه الطرف الآخر الرأي. ومع شحّ المعلومات وكثرة التعتيم، ومع تعقيد القضيّة السوريّة بكثرة الأطراف والأَجِنْدات الدخيلة التي تدخّلت فيها وأصبحت تنهش الوطن باسم الإصلاح، فإنّ الفلسطينيّين يتناحرون حول القضيّة السوريّة وكأنّهم موجودون داخل دائرة الحدث، يَعْلمون كلّ ما يحدث، وكلّ منهم متمسّك برأيه دون الآخر، ويتّهم الآخر بالجهل والعمالة والخيانة.

كلّ ذلك يحدث، والأَجِنْدات الدخيلة، سواء في ذلك تلك التي استقدمها النظام -كروسيا مثلًا-، وتلك التي وجدت أمامها صيدًا سهلًا وفريسة سائغة -كالولايات المتّحدة الأمريكيّة مثلًا-، هذه الأجندات ما تزال وسط هذا الخلاف الكبير بين مؤيّد ومعارض، ما تزال تنهش لحم الوطن وتأكله كالسرطان، ونحن عنها غافلون.

***د. مسلم محاميد هو شاعر وأديب وباحث أكاديميّ.**